Université
Aboubekr Belkaïd
Tlemcen

جامعة أبو بكر بلقايد

محاضرات مقياس انتربولوجية اشكال التعبير الشعبي

الدكتورة بكوش المولودة قشيوش نصيرة

جامعة تلمسان

المحاضرة الرابعة

Mars 2020

المحاضرة الرابعة

العادات والطقوس (عادات الزواج انموذجا)

مقدمة

لا يمكن تصور قيام أي مجتمع منظم دون عادات وطقوس فالعادات الاجتماعية بإجماع علماء الاجتماع الدعائم الأولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل بيئة اجتماعية فقي كل جماعة من الجماعات تنشا طائفة من الأفعال والممارسات والإجراءات والطرق التي يزاولها الافراد لتنظيم احوالهم والتعبير عن أفكارهم وان دور العادات في الضبط والتنظيم لا يقل شانا واثرا عن دور القوانين سلطة المجتمع المكتوبة والموضوعة فإننا نعتبر العادات سلطته غير المكتوبة ودستوره المحفوظ في الصدور ذلك الدستور الذي يوجه أفعال الناس ويسيطر عليها في جميع العصور وفي كل مراحل الثقافة المختلفة وفي كل زمن ووقت...فهي تغمر الانسان وتحيط به في كل مناسبة وفي كل معاملاته مع غيره في المجتمع، والانسان يخضع لها ويطيع اوامرها بشكل يفوق كثيرا حد التصور لهذه الحقيقة.

تعريف العادات والطقوس:

اهتم الأنتربولوجيون اهتمامًا خاصًّا بالعادات الاجتماعية على أساس أنّها تساعد في تكوين أنماط الأفعال، ونماذج الأفكار فاستخدموا هذا المصطلح على جميع مستويات التجريد، وقد اهتموا

اهتمامًا خاصًّا بالأفعال الرّوتينية اليومية للحياة والقواعد المستخدمة بطريقة نمطية، وكذا الأنماط الثقافية التي يُمكن مشاهدتها في الأفعال المتكرّرة المميّزة للكلّ الثقافي [1]

فقد اهتمّ فورتس بالظّواهر الخاصّة بالعادات واعتبراها أحد الميادين الهامّة بالأنتربولوجيا الاجتماعية والثّقافية، كما أنّه قد أوضح أنّ مهمّة الباحث الأنثروبولوجي الرّئيسية هي تسجيل الجزيئات التفصيلية الخاصّة بالعادة والسّلوك في داخل محتوى العلاقات الاجتماعية. [2]

وأكّد مالنوفسكي هذا الاتّجاه أيضًا في كتابه الجريمة والعرف في المجتمع الهّمجي واوضح أهميّة العادات ونظرة الأهالي لها بكلّ احترام. كما أشار أيضًا عند دراسة لسكّان جزر التروبرياند إلى الحياة والنّظام اليومي. والنّشاط الكامل فنيّة بذلك الذهان إلى اهميّة الملاحظة المباشرة ودور العادة في وجود سلسلة من المعاملات الاجتماعية. وأعطت روث بنديكت R.BENDICT اهميّة عظمى للعادة بالنسبة للمواقف التي تحتاج للخبرة واعتبرتها عبارة عن " عدسة " لا يستطيع الإنسان أن يرى بدونها. [3]

صفات العادات الاجتماعية:

ّا العادات الاجتماعية مظاهرها اجتماعية وتمثل أسلوب اجتماعيا بمعنى أنّه لا يمكن أن تتكوّن وتمارس إلاّ في مجتمع ومن خلال التفاعل مع أفراده وجماعاته.

---

[1] فاروق أحمد مصطفى، الأنتربولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، 2008، ص 76 - المرجع نفسه ص 77 (نقلاً عن- Mitcheld .G.ed Dictionary of sociology Routledge

[2] Kegan Paul London, 1968, p 51

[3] Malinowski B. Angonauts of the Western pacific, فاروق احمد مصطفى المرجع السابق ص 77 (نقلاً -

والعادات الاجتماعية لها قيمة معيارية بمعنى أنّها تتطلب الامتثال الجماعي والقبول والموافقة الاجتماعية (الجماعية) التي قد تصل في بعض الأحيان إلى الطّاعة المطلقة وتتوقف العادات الاجتماعية على ظروف المجتمع، فهي تختلف بحسب المجتمعات وبحسب الأزمنة المختلفة. [4]

وقد تمارس العادات الاجتماعية على نطاق شعبي كبير، فتصبح لتكرار الدّائم عادات شعبية أو أساليب وطرائق شعبية على حدّ تعبير سمنر Sumner والذي يرى أنّ لها قوّة مجتمعية أو قوّة على مستوى المجتمع كله.

ويحدّد سمنر خصائص أربعة للأساليب الشعبية وهي قوّة الالزام، وعمومية شمول هذه الأساليب، والجزاءات التي توقع على من يخرج عن الأساليب الشعبية، كما أنّ لها صفة الاستمرار.

إنّ العادات الاجتماعية لها وجوها كحقيقة ملموسة في كلّ جوانب الحياة اليومية، فهي كلّ سلوك متكرّر مكتسب اجتماعيا ويتم تعليمه وممارسه اجتماعيًا حيث ترتضيه الجماعة وتفرضه على أعضائها وعندما يستمرّ استعمال العادات الاجتماعية لفترات طويلة تصبح تقليدًا، فالتقاليد هي المحاكاة لسلوك القدامى والمتوازي عنهم، والتّقاليد أيضًا تنتقل وتورث من جيل إلى جيل، كما تمدّنا بمجموعة من الأنماط السلوكية المعدّة والجاهزة من قبل لكي تتّبعها حتّى تستطيع تحقيق الحاجات الأساسية كما أنّها ترسم لنا الأساليب والتّصرفات التي تتحُ التعاون والتّفاعل، والتكيّف في المواقف المختلفة، ومهما كانت أهمّية التّقاليد إلاّ أنّه لا يُمكن أن نغفل سيطرتها وطغيانها على

---

[4] Malinowski B. Angonauts of the Western pacific, Routledge, Kegan Paul, London, 1956, p 18. فاروق احمد مصطفى المرجع السابق ص 77 (نقلاً

حياة النّاس فهي تُقيّد سلوكهم وتتدخل في كلّ أنواع النّشاط المتبادل بينهم وتُمارس ضغطا قد يصعب على البعض التخلص منها. [5]

تقديس العادات:

ان توارث العادات التقليدية من جيل إلى جيل يضفي عليها احترامًا وقدسية يزيدان من تثبيتها ورسوخها واستقرارها. وكلّما استقرّت بالتّوارث وبتقدّم الزمن، أصبحت أقوى في سيطرتها وإلزامها لأفراد الجماعة إذ يتكوّن عندهم الاعتقاد بأنّ هذه العادات هي السّلوك الصّابب السليم الّذي تمّ اختياره بمحك التّجريب والخبرة العملية وبعد أن ثبت صلاحية بالممارسة الفعلية للأسلاف والأجواد ولذا يجب أن يتمسّكُوا بها. وهذا يتبيّن لنا عندما نسأل أفراد جماعة مَا وخاصّة في الجماعات البدائية المنعزلة عن تيّار الحضارة أو الجماعات الرّيفية النّائية والمنعزلة عن المكنن: لماذا يسلكون سُلوكًا تقليديًا معيّنًا؟ فإنّهم يُجيبون بأنّ " ذلك ما وجدنا عليه آباءنا" أو لأنّ أجدادنا كانُوا به متمسّكين، بل إنّهم كثيرا ما يذهبون إلى أبعد من هنا فيصحون عن أنّ مخالفة العادات تصلب الشؤم والنّحس والضرّر على المخالف وعلى الجماعة. [6]

إنّ مسايرتنا للعادات واستمرار تمسكنا بها، تتخلّص في نظر " تونيس" في أنّها تأتينا من أسلافنا الّذين أثبتُوا بالحكمة والتّجربة الواسعة أنّها نافعة ومفيدة وصائبة وسليمة، وإذن فهي بالتّالي ضرورية لنا ولحياتنا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فنحنُ ملزمون بطاعتها، لأنّ طبيعة تمجيدنا لأجدادنا تجعلنا نُمجّد أيضًا عاداتهم الّتي انحدرت إلينا ونتمسّك به.[7]

---

[5] Rohden , R, Peter , « Tradution » in Encyclopedia of the Social science Vol, 13 pp, 62-65.) فاروق أحمد مصطفى، المرجع السابق ص 79 (نقلاً عن -

[6] فوزية دياب القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة للطباعة و النشر بيروت 1980، ص 153.

[7] المرجع نفسه، ص 157

الطقوس جمع كلمة طقس (Rite) مشتقة من الكلمة اللاّتينية Ritus وهي عبارة تعني عادات وتقاليد مجتمع معيّن كما تعني كلّ أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإجار التجريبي. [8]

وتكمن دعوة الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير. فالطّقس يميلُ أساسًا من خلال تكرار واستدامة القواعد التي تُثبّتهُ إلى تكريس ديمومة الحدث الشهير. فالطقس يميل أساسيًا من خلال تكرار واستدامة القواعد التي تُثبّته إلى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده فهو استنادًا إلى ذلك إعادة خلق وتحيين لماضي غامض غالبًا لكنه يأخذ معناه عند الدين يستخدمونه على انّه فعل ديني. [9]

ولقد تنوّعت وتعدّدت التعريفات الخاصّة بالشعائر والطّقوس، ويعرّف إيموند ليتشُ (EDMUND Leach) الشعائر بأنّها أيّ تعبير عن أيّ شكل من الأشكال الثقافية الموجودة في المجتمع. [10]

ونرى بول فريديريتش (P.Fhiednich)أنّ الشعائر هي مجموعة الاحتفالات الثقافية المحددة المتكرّرة، أي هي مجموعة من الأفعال المرتبطة بالقوّة الخارقة للطّبيعة، أو بالسّلطة أو بأشخاص مجرّدين أو بأفكار وأنساق معيّنة. [11]

---

[8] نور الدين طوالبي الدّين والطّقوس والتغيّرات تزوجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1988 - ص 37

[9] .نور الدين طوالبي المرجع السابق، ص 38

[10] مرفت العشماوي- دورة الحياة دراسة للعادات والتقاليد الشعبية عثمان العشماوي- دار المعرفة الجامعية، مصر 2011 ص 26 (نقلا عن Edmund Leach political systems of Highland Burma Harvard University press. U.S.R . p 4.)

[11] مرفت العشماوي المرجع السابق، ص 27 (نقلا عن Paul P Friedrich , « revolutionary and communal ritual » in marc swantz and Victor W. turner (ed) , 1966. Political Anthropology , Adline Publishing company, Chicago, p 192.)

ويرى فيرث انّ الكثير من العلماء قد حاول التمييز بين الطّقس والشعيرة، ولكن التّفرقة بينهما تعتبر عملية صعبة وعقيمَة وجافة وعديمة الجدوّى. [12]

فالشعائر إذًا هي نمط من الأفعال المحدّدة المصاحبة للأنساق الثقافية المتكرّرة السائدة في المجتمع، وإذا كانت الشعيرة هي وحدة التعبير الرّمزي عن القيم والاتّجاهات والعواطف السّائدة في المجتمع فإنّ الطّقوس هي مجموعة مركّبة من الشعائر المرتبطة بأيّ مناسبة من المناسبات الاجتماعية على نحو ما ذكر تايلور، وغنّ التفرقة بين الطقوس والشعائر هي في الواقع مسألة صعبة وعقيمة كما ذكر ريموند فيرث. [13]

ولقد ميّز علماء النتربولوجيا بين بعض الطقوس منها طقوس العبور او الانتقال Rites of passage وهذا النّوع من الشعائر ينفذ إلى المشكلات الحياتية لأفراد المجتمع، والنّوع الآخر بحيث خلال الأزمات المجتمعية فيعمل على توحيد أفراد المجتمع معًا.[14]

وترتبط طقوس العبور أو الانتقال بالأحداث غير الدورية أي أنّها تهتّم بالمشكلات الحياتية للأفراد وهي المشكلات التي تؤثّر على النّسق القرابي والعائلي وتؤدّي بالتّالي إلى حدوث تغيّرات جوهرية تؤثّر على النّسق القرابي والعائلي وتؤدي بالتالي إلى حدوث تغيّرات جوهرية تؤثّر على معدّلات التّفاعل داخل هذا النّسق كما هو الحال بالنسبة لحالات الميلاد والبلوغ والزواج والوفاة. ومن أهّم ملامح هذه الطقوس أنّها تؤثر على الفرد بصفة خاصة كما أنّها تؤثر على بقية أعضاء الجماعة التي يدخل معها في علاقات اجتماعية.[15]

---

[12] مرفت العشماوي المرجع السابق، ص 28.

[13] المرجع نفسه، ص 28 -

[14] مرفت العشماوي، المرجع السابق، ص 31

[15] مرفت العشماوي، المرجع السابق، ص 31

أمّا طقوس التعضيد ترتبط بدورة الحياة المجتمعية أي بالأحداث التي تحدث بصفة منتظمة ومتكرّرة في المجتمع مثل تعاقب اللّيل والنّهار والفصول والاحتفالات والأعياد السنوية، كما ترتبط أيضا بأزمات المجتمع وبالمشكلات التي يتعرّض لها كالمجاعات والأوبئة وعدم سقوط الأمطار. وتستوجب تلك الأزمات القيام بشعائر جماعية لاستعطاف القوى فوق الطبيعية لمساندتهم للتخلص من تلك الأزمة أو المشكلة.[16]

وظائف الشعائر والطّقوس:

الاشتراك في ممارسة الشعائر يعني الاشتراك في قيم المجتمع، والاشتراك في تراث الأجيال. والإحساس بالاستمرارية أو الدّيمومة في الشعائر أمر على جانب كبير من الأهمية، فحينما يقوم باحث الأنتربولوجيا بسؤال سكان المجتمعات البسيطة عن سبب قيامهم بتلك الشعائر فغنّهم يقولون أنّ أسلافهم كانوا يقومون بها. ولم يتّضح بعد ما إذا كانت الشعائر توجد وتستمّر في الوجود تكرارها المستمرّ والقيام بها بصفة منتظمة، أم لأنّها تشبع حاجة لدى المشتركين فيها.

وللشعائر والطقوس وظائف كثيرة منها: أنّها تعمل على تثبيت وتأكيد القيم، ولقد ظهر ذلك من خلال التعريفات المتحددة للشعائر، كما يظهر أيضًا من خلال الاحتفالات الشعائرية كالاحتفال بعقد القران مثلاً الذي يضمن ترديد بعض العبارات أو الخطب والتي تُشيرُ بدورها إلى قيم الجماعة من خلال أنواع مألوفة من التعليمات والمبادئ ومن ثمّ يظهر مدى الاهتمام بالتفاف حول قيمهم.

[16] مرفت العشماوي، المرجع السابق، ص 31

كما تعمل الشعائر على إمداد الأعضاء المشتركين فيها ببعض أساليب ووسائل الضبط الاجتماعي حيث أنّها تُحدّد طبيعة علاقاتهم بالآخرين، وبالعالم المحيط بهم، وتحدّد أيضًا علاقاتهم بالقوى فوق الطبيعة. كما أنّها تُتبّه المشتركون فيها لما يجب أن يقوموا به من أنماط سلوكية، كما أنّها أحيانًا تُمجّد وتمدح سلوكهم واتّجاهاتهم الصّحيحة وبذلك تعمل على تحقيق الضّبط الاجتماعي.

وتهدف الطقوس أيضًا إلى العمل على تقوية الرّوابط الاجتماعية من ناحية كما أنّها تُساعد على التخلّص من التوتّر والاضراب من ناحية ثابتة. حيث تعمل على مدّ الأفراد بالشعور بالطمأنينة والأمان، وتُساعدهم على مواجهة الاضطرابات النفسية التي يُجابهونها من خلال أحداث الحياة اليومية. فالشعائر السحرية تُريحُ الفرد لأنّها تُشعر بأنه يقوم بشيء ما للتغلب على مشكلته.

كما تعمل الطّقوس أيضًا على حفظ التّوازن (سوء بالنّسبة للفرد أو المجتمع) وتحقيق الثبات في مواجهة الاضطرابات الكامنة، أو التكيف مع تلك الاضطرابات. فطقوس العبور تهدف إلى تثبيت أعضاء المجتمع وتقويتهم أثناء تلك الأوقات الانفعالية.

فان جنب وشعائر المرور:

أرنولد فان جنب (Arnold van genneep) هو عالم الفلكلور الهولندي الفرنسي الذي وضع نظريته الشهيرة عن شعائر المرور أو شعائر الانتقال، والذي طال إغفاله وتجاهله أثناء حياته ولم يلتفت إليه العالم إلاّ بعد موته بزمن طويل.

ويذكر فان جنب في كتابه شعائر العبور the rites of passage والّذي ظهر في ديسمبر عام 1908 أنّ حياة أيّ فرد من الأفراد داخل أيّ مجتمع من المجتمعات هي عبارة عن سلسلة

من الإنتقل والعبور من مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية أخرى، ومن منصب ومكانة إلى منصب ومكانة أخرى.

ويرى فان جنب أنّ الانتقال من جماعة إلى أخرى يصاحبه بعض الأفعال المعينة كما هو الحال بالنسبة للمهن المختلفة، حيث يتمّ الحصول على فترات تدريبية من اجل التدرّج والترقي والحصول على مركز أفضل ويظهر هذا في المجتمع الغربي الحديث. أمّا بالنسبة للمجتمعات شبه المتحضّرة فنجد أنّ نمط الأفعال هذا يتّخذ صورة الطّقوس حيث أنّ عقلية سكان تلك المجتمعات تعتبر أيّ فعل من الأفعال لا يكاد يخلو من جانب القداسة.[17]

ونلاحظ في تلك المجتمعات أيضا أنّ أيّ تغيّر في حياة الفرد يتضمّن الأفعال وردود الأفعال التي تتراوح بين القداسة والطّهارة منها تنظيم وحفظ المجتمع ككل وذلك حتّى لا يتعرّض للاضطراب نتيجة للأزمات التي يمرّ بها أعضاؤه.

ويرى فان جنب أنّ العبور والانتقال يجب أن يتمّ بين فئة أو تصنيف أو مكانة إلى تصنيف آخر، والانتقال لا يعني انتهاء المكانة أو التّصنيف، إنّما يبقى التصنيف أو المركز قائمًا بذاته ويطرأ التحوّل والتغيّر على الأفراد. وعملية الانتقال نفسها من الممكن أن تصنّف بصورة رمزية، وغنّ عبور الأفراد من مكانة إلى أخرى، وأساليب العبور الرمزية تختلف باختلاف المجتمعات الموجودة في العالم.[18]

ولقد حاول فان جنب في كتابة شعائر المرور دراسة الأنماط الطّقوسة في علاقتها ببعضها البعض، كما حاول أيضًا القيام بجمع كلّ الأنماط الطّقوسية التي تصاحب الانتقال والتحول من

Arnold van genneep Rites of passage p 2, 3. مرفت العشماوي ص 34 (نقلاً -

[17].المرجع نفسه ص 36 -

المرجع نفسه ص [18]37

مكانة اجتماعية لأخرى او من حالة لأخرى وذلك لأهمية هذا الانتقال من ناحية، ولأنّ شعائر المرور يجب أن ينظر إليها كتصنيف خاصّ قائم بذاته يمكن أن تقسم وتُحلّل إلى شعائر الانفصال والشعائر الهامشية وشعائر الاندماج أو الدخول أو التجميع. [19]

فشعائر الانفصال مثلاً ترتبط بالمرحلة الأولى وهي مرحلة الانفصال بالنسبة للفرد، وهي تتضمّن انفصال في التفاعل بين الفرد والجماعة التي كان يتفاعل معها. ففي بعض طقوس الزواج يقوم أقارب وأصدقاء العريس بالتوجه إلى منزل عائلة العروس ويقومون باصطحاب العروس بالقوة كتعبير عن انفصالها عن جماعتها القرابية. [20]

أمّا الشعائر الهامشة وهي ترتبط بالمرحلة الثانية وهي نوع من الإعداد الرسمي للدور أو الوضع الجديد، ويطلق على هذه المرحلة أيضًا مرحلة الاستهلال حيث يكون الفرد لا داخل ولا خارج مرحلة محدّدة أو كما أطلق عليها Vitruner " بين بين ". [21]

ويحاول الفرد أثناء تلك الفترة إعداد نفسه للتفاعل مع نسق علاقاته الجديد حيث أنّه لم يندمج ولم يلتحم بعد بعلاقاته ومكاناته الجديدة وتختلف مدّة هذه الفترة حسب المجتمع نفسه فيتراوح طولها في المجتمع الحديث بين عطلة نهاية الأسبوع أو شهر العسل للعروسين، وقد تصل في سبعة أشهر كما هو الحال بالنسبة للتعليمات التي تُلقّن خلال طقوس الرّهنية في معتقد Legba في داهومى حيث تعتبر فترة لا يتفاعل فيها الفرد بعد داخل نسقه الجديد (الرهينة). [22]

---

[19] Arnold van Genneep Rites of passage p 10, 11)

[20] المرجع نفسه ص 38

[21] فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي، دراسات في التراث الشعبي دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2013 ص5 -.

[22] Main , Lucy Antropology and development , المرجع نفسه ص 35 (نقلاً عن - Macmillan press London, p 43)

والمرحلة الهامشية المرتبطة بالزواج تتمثل في الخطبة وهي الفترة التي تسبق عقد الزّواج بصفة رسمية وهي في الواقع المرحلة التحضيرية أو الإنشائية لتوثيق العلاقات بين أسرتي الزّوج والزّوجة ووضع أسس الحياة الزوجية وهي مرحلة مرنة وخطوة لأنّ الكثير يظنّون أنّ وظيفة هذه المرحلة مقصورة على بلوغ الهدف الأسمى هو عقد الزوج، لذلك يخرج المتصاهرون على مألوف عادتهم ويتظاهرون بما ليس في وسعهم ومقدرتهم. ويسيطر على مشاعر الأفراد في هذه المرحلة السلوك التقديري وتقوم العلاقات على الجذر المتبادل الذي قد يصل إلى درجة التشكك وهذه الأمور تسيئ إلى نظام الأسرة متى تكوّنت بصفة رسمية لاسيما عندما تنكشف الأمور على حقيقتها ويتّضح للزوجين واقع الأمر وكثيرا ما تنفكّ الخطوبة ويصبح الطرفان في حلّ من ارتباط المبدئي دون أن يترتّب على ذلك أيّة إجراءات شرعية. [23]

وما يتعلّق بشعائر الاندماج وهي المرحلة الثالثة يتمثّل في تفاعل الفرد مرة أخرى مع أعضاء جماعية ومجتمعه كعضو داخل التنظيم الجديد الّذي يحتلّ دورًا داخله. وفي هذه المرحلة يكون العبور أو الانتقال قد تمّ، ويكون الفرد قد انتقل إلى المكانة الجديدة بكلّ التزاماتها وحقوقها واخذ صاحبها في القيام بمهامه بأسلوب محدّد.

فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي، دراسات في التراث الشعبي ص 35 نقلا عن Dismore , and coon, Carleton Stevens, 1947, Principles of anthropology , Henry Holt and company , N.Y , p 484) [23]